

من الوقوف على الطلل والنسيب ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي امتدت على مساحة الشعر القديم كله . ويقيم الدكتور عز الدين إسماعيل تفسيره لهذه الظاهرة كمقابل للتفصيـر الخارجي الذي قال به ابن قتيبة من حيث كانت ممثلة في حقيقتها لارتداد الشاعر إلى ذاته وخلوه إليها ، وأنه يصحـو على الشعور المستمر بتسرب الحياة منه ؛ إذا ما أتيحت عملية التحلـيل والتفسـير الطبيعـة الوقـوف على الطلـل عند الشـعـراء الجـاهـليـين - دـيـارـ لـسـلـمـيـ عـافـيـاتـ بـذـيـ خـالـ الحـ عـلـيـهاـ كـلـ أـسـحـمـ مـطـالـهـ - وـتحـسـبـ سـلـمـيـ لاـ تـزالـ تـرىـ طـلاـ منـ الـوـحـشـ أـوـ بـيـضاـ بـمـيـشـاءـ مـحـالـ - وـتحـسـبـ سـلـمـيـ لـاـ تـزالـ كـعـهـدـنـاـ وـمـنـ يـعـيـدـ النـظـرـ فـىـ الـوـقـوفـ الـطلـلـ عـنـ الـشـعـراءـ الـقـادـمـيـ بـعـامـةـ وـأـمـرـيـ القـيـسـ بـخـاصـيـةـ يـدـرـكـ أـنـ الـطـلـلـ يـمـثـلـ تـحـولـاـ عـلـىـ ٦ـ بـوـاـيـ الـخـازـمـيـ أـوـ عـلـىـ رـأـسـ أـوـصـالـ - لـيـالـيـ سـلـيـمـيـ إـذـ تـرـيـكـ مـنـصـبـاـ مـسـتـوـيـنـ :ـ الـأـوـلـ :ـ مـنـ حـيـثـ الشـكـلـ ؛ـ حـتـىـ أـلـ أـمـرـهـ إـلـىـ مـاـ صـارـتـ عـلـيـهـ أـثـرـاـ وـجـيـداـ كـجـيدـ الرـثـ لـيـسـ بـعـطـالـ -ـ الـأـزـعـمـتـ بـسـيـاسـةـ الـيـوـمـ أـنـتـيـ كـبـرـتـ وـأـنـ لـاـ يـحـسـنـ اللـهـ أـمـثـالـيـ -ـ كـذـبـتـ لـقـدـ أـصـبـىـ عـلـىـ الـمـرـءـ عـرـسـهـ وـأـمـنـ عـرـسـيـ أـنـ يـزـنـ بـهـ الـحـالـيـ (٨)ـ بـعـدـ عـيـنـ الـثـانـيـ :ـ مـنـ حـيـثـ الـبـاطـنـ ؛ـ وـقـدـ تـحـولـتـ فـيـ الدـارـ مـنـ طـبـيـعـتـهاـ الـمـحـسـوـسـةـ إـلـىـ طـبـيـعـةـ إـلـهـامـيـةـ يـتـأـمـلـ فـيـهاـ الـشـاعـرـ بـعـضـ إـنـ مـحاـوـلـةـ الـاستـكـشـافـ لـإـمـكـانـاتـ الـتـرـكـيـبـيـةـ وـمـاـ بـيـنـهـاـ مـنـ سـوـفـ يـؤـدـيـ بـنـاـ إـلـىـ اـسـتـكـنـاهـ نـظـامـ عـامـ -ـ يـجـمـعـ بـيـنـ عـلـاقـاتـ الـأـبـيـاتـ ،ـ يـتـفـقـ مـنـ خـالـلـاـ الـبـعـدـ الـزـمـانـيـ وـالـبـعـدـ الـمـكـانـيـ لـلـتـجـرـبـةـ كـإـفـراـزـ طـبـيـعـيـ لـلـعـلـامـاتـ الـتـرـكـيـبـيـةـ .ـ يـجـمـعـ فـيـهاـ الـشـاعـرـ بـيـنـ الـطـلـلـ -ـ الـمـمـثـلـ لـلـمـاضـيـ -ـ وـبـيـنـ مـاضـيـ عـمـرـهـ ،ـ وـبـهـذاـ يـمـكـنـ أـنـ يـعـدـ حـيـثـ الـشـاعـرـ عـنـ نـفـسـهـ اـمـتـدـادـاـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـطـلـلـ .ـ وـيـتـضـحـ لـنـاـ هـذـاـ التـوـحـدـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـصـيـاغـةـ إـذـ قـارـنـاـ بـيـنـ نـمـطـ الـتـرـكـيـبـ فـيـ الـبـيـتـ الـأـوـلـ وـالـبـيـتـ الـثـامـنـ ؛ـ فـقـدـ بـدـأـ كـلـ مـنـهـماـ بـالـأـدـاءـ

الـمـنـبـهـةـ (ـأـلـاـ)ـ تـلـتـهـ جـمـلةـ فـعـلـيـةـ مـرـتـبـطـةـ بـزـمـانـ (ـعـمـ صـبـاحـاـ)ـ وـ (ـزـعـمـتـ بـسـيـاسـةـ الـيـوـمـ)ـ .ـ عـاجـزاـ وـعـلـىـ هـذـاـ يـكـونـ (ـالـتـكـنـيـبـ)ـ فـيـ الـبـيـتـ التـاسـعـ مـنـصـبـاـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ مـعـاـ :ـ الـطـلـلـ ،ـ بـالـاسـتـفـهـاـمـ السـالـبـ -ـ إـلـىـ التـعـبـيـرـ عـنـ عـبـثـيـةـ التـحـيـةـ وـالـدـعـاءـ وـأـنـهـ وـبـانـكـسـارـ لـحـظـةـ (ـالـحـضـورـ)ـ مـعـ كـلـمـةـ (ـالـبـالـيـ)ـ يـطـفـوـ الـمـاضـيـ وـيـنـتـشـرـ مـنـ خـالـلـ عـدـةـ تـرـاكـيـبـ (ـالـعـصـرـ الـخـالـيـ)ـ ،ـ وـيـسـتـمـرـ تـأـيـرـ هـذـاـ

الـاسـتـفـهـاـمـ السـلـبـيـ -ـ دـلـلـيـاـ -ـ عـلـىـ الـبـيـتـ الثـانـيـ ،ـ وـنـمـطـ الـتـرـكـيـبـ فـيـ هـذـهـ الصـيـغـ يـأـتـيـ -ـ فـيـ الـغـالـبـ -ـ عـلـىـ صـورـةـ الـجـمـعـ ،ـ وـبـمـلـاحـظـةـ حـرـكـةـ الـأـفـعـالـ فـيـ الـأـبـيـاتـ وـأـبعـادـهـ الـزـمـانـيـةـ تـبـلـوـرـ عـمـلـيـةـ الـصـرـاعـ بـيـنـ الـمـاضـيـ وـالـحـاضـرـ ؛ـ أـحدـثـ نـوـعـاـ مـنـ الـاتـصالـ بـيـنـ الـشـاعـرـ وـبـيـنـ الـطـلـلـ ،ـ وـتـسـتـمـرـ سـطـوـةـ (ـكـانـ)ـ إـلـىـ الـبـيـتـ الثـالـثـ ،ـ قـبـلـ أـنـ يـذـوـيـ وـيـصـبـحـ أـثـرـاـ بـعـدـ الـسـادـسـ ،ـ ثـمـ يـرـبـطـ بـيـنـ الـ فعلـ وـالـوـاقـعـ أـنـ الـشـاعـرـ الـطـلـلـ مـاـ كـانـ يـعـنـيهـ كـثـيـراـ رـصـدـ الـأـسـيـابـ الـتـيـ أـدـتـ إـلـىـ تـحـولـ الـدـيـارـ الـعـامـرـةـ إـلـىـ أـطـلـالـ إـلـاـ بـحـسـيـانـهـاـ عـمـلـيـةـ باـطـنـيـةـ تـعـطـيـهـ نـوـعـاـ مـنـ الـرـاحـةـ وـالـطـمـانـيـةـ ؛ـ أـوـ مـنـبـهـاـ يـسـتـعـيـدـونـ لـمـاـ نـجـتـهـاـ مـنـ جـنـوبـ وـشـمـالـ -ـ تـرـىـ بـعـرـ الـأـرـامـ فـيـ عـرـصـاتـهاـ وـقـيـعـانـهـاـ كـأنـهـاـ حـبـ فـلـفـلـهـ -ـ وـقـوـفـاـ بـهـاـ صـحـبـيـ عـلـىـ مـطـيـهـمـ -ـ كـأنـ غـدـاـ الـبـيـنـ يـوـمـ تـحـمـلـوـ لـدـىـ سـمـرـاتـ الـحـيـ نـاقـفـ حـنـظـلـ مـنـ خـالـلـ أـخـصـ تـجـارـبـهـ الـذـاتـيـةـ ،ـ بـوـصـفـهـ وـجـارـتـهـ أـمـ الـرـيـابـ بـمـأـسـلـ.ـ لـكـنـ اـسـتـعـانـ بـوـسـيـلـةـ أـسـلـوـبـيـةـ هـيـ (ـالـتـجـرـيدـ)ـ لـيـحـدـثـ بـهـاـ اـنـفـصـاماـ

بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـذـاتـ ،ـ وـالـطـبـيـعـةـ الـحـوارـيـةـ فـيـ الـبـيـتـ الـخـامـسـ مـنـ دـعـوـتـهـ إـلـىـ الـوـقـوفـ عـلـىـ الـطـلـلـ الـدـارـسـ ،ـ ثـمـ إـضـافـتـهـ إـلـىـ يـاءـ الـمـتـكـلـمـ لـيـؤـكـدـ خـصـوصـيـةـ الـتـجـرـبـةـ وـبـعـدـهـ الـذـاتـيـ .ـ بـلـ إـنـ الـبـيـتـ نـفـسـهـ أـوـضـحـ رـفـضـ الشـاعـرـ لـلـطـلـلـ صـرـاحـةـ باـسـتـخـدـامـ أـدـاءـ الـمـقـابـلـ لـلـزـمـنـ الـمـاضـيـ الـمـتـجـسـدـ فـيـ تـقـابـلـ الـأـسـمـاءـ (ـمـنـزـلـ -ـ سـقـطـ الـلـوـيـ -ـ الدـخـولـ -ـ حـوـمـلـ -ـ تـوـضـحـ -ـ الـمـقـرـاةـ)ـ .ـ وـتـمـتـ طـبـيـعـةـ التـقـابـلـ إـلـىـ

الـبـيـتـ الـثـالـثـ مـنـ خـالـلـ الـفـعـلـ (ـتـرـىـ)ـ بـمـاـ فـيـهـ مـنـ دـلـلـةـ عـلـىـ الـحـاضـرـ الـمـعـاـينـ،ـ وـاـخـتـيـارـ الـبـعـدـ)ـ هـنـاـ يـشـيـ بـالـمـيلـ إـلـىـ رـفـضـ الـطـلـلـ وـالـنـفـورـ مـنـهـ ،ـ وـعـلـيـهـ فـلـاـ حـاجـةـ بـهـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ طـلـبـ حـيـلـةـ أـخـرـىـ ،ـ وـأـبـعـدـ عـنـ مـعـنـىـ الـفـنـاءـ وـالـتـحلـلـ الـمـتـمـثـلـ فـيـ الـطـلـلـ .ـ وـيـأـتـيـ الـبـيـتـ الـرـابـعـ بـأـسـبـابـ تـحـولـ الـدـارـ إـلـىـ طـلـلـ ،ـ الـمـتـحـركـ إـلـىـ أـمـامـ -ـ وـلـذـاـ فـرـغـ الـبـيـتـ مـنـ صـيـغـةـ الـفـعـلـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ دـلـلـةـ عـلـىـ الـزـمـنـ،ـ مـنـ حـيـثـ كـانـتـ تـجـرـبـةـ الـطـلـلـ -ـ فـيـ الـحـرـكـةـ الـأـوـلـىـ -ـ ذـاتـ نـهـاـيـةـ مـغـلـقـةـ فـيـ حـيـنـ أـخـذـتـ تـجـرـبـةـ الشـاعـرـ -ـ فـيـ الـحـرـكـةـ الـثـالـثـةـ -ـ طـبـيـعـةـ الـاـسـتـمـارـ الـمـلـيـءـ بـالـحـيـوـيـةـ .ـ الـبـيـتـ الـثـامـنـ حـيـثـ سـيـطـرـتـ فـيـهـ (ـإـذـاـ)ـ عـلـىـ مـاـ بـعـدـهـ مـخـلـصـتـهـ الـمـعـنـىـ الـاـسـتـقـبـالـ ،ـ وـبـعـنـ آخـرـ فـإـنـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـحـرـكـتـيـنـ تـحـولـتـ إـلـىـ طـبـيـعـةـ جـدـلـيـةـ بـيـنـ الـسـلـبـ وـالـإـيجـابـ .ـ بـأـنـ يـتـدـفـعـ الشـاعـرـ بـكـلـ طـاقـتـهـ وـرـغـبـتـهـ فـيـ الـحـيـاـةـ إـلـىـ رـحـلـةـ طـوـيـلـةـ عـلـىـ

ظـهـرـ نـاقـةـ قـوـيـةـ إـلـىـ حـيـثـ الـخـصـبـ وـالـنـمـاءـ .ـ وـيـمـكـنـ أـنـ نـسـتـكـشـفـ هـذـهـ الصـورـةـ فـيـ قـوـلـ اـمـرـيـ القـيـسـ :ـ غـشـيـتـ دـيـارـ الـحـيـ بـالـبـكـراتـ فـعـارـمـةـ بـرـكـةـ الـبـيـرـاتـ السـارـيـ فـقـولـ فـعـلـيـتـ فـأـكـنـافـ مـنـجـ إـلـىـ عـاـقـلـ فـالـحـبـ ذـيـ الـأـمـرـاتـ ٣ـ -ـ ظـلـلـتـ رـدـائـيـ فـوـقـ رـأـسـيـ قـاعـدـاـ أـعـدـ الـحـصـىـ مـاـ تـنـقـضـيـ عـبـرـانـ -ـ أـعـنـىـ عـلـىـ النـهـاـيـةـ وـالـذـكـرـاتـ يـبـتـنـ عـلـىـ ذـيـ الـهـمـ مـعـتـكـرـاتـ ٥ـ -ـ بـلـلـ تمامـ أـوـ وـصـلـنـ بـمـثـلـهـ مقـايـيسـ أـيـامـهـاـ نـكـرـاتـ ٦ـ -ـ كـانـ وـرـدـقـ الـقـرـابـ وـتـمـرـقـ عـلـىـ ظـهـرـ عـبـرـ وـارـدـ الـبـيـرـاتـ -ـ اـرـنـ عـلـىـ حـقـبـ حـيـالـ طـرـوـقـ كـنـودـ الـأـجـيـرـ الـأـرـبـعـ الـأـشـرـاتـ -ـ عـنـيفـ بـتـجـمـيـعـ الـضـرـائـرـ فـاحـشـ شـتـيمـ كـذـلـقـ الـرـجـ ذـيـ نـمـرـاتـ -ـ وـيـأـكـلـنـ هـمـيـ جـعـدـ حـبـشـيـةـ وـيـشـرـيـنـ بـرـدـ المـاءـ فـيـ الـسـيـرـاتـ ١٠ـ -ـ فـأـورـدـهـاـ مـاءـ قـلـيـلـاـ أـنـيـسـهـ يـحـازـنـ عـمـراـ صـاحـبـ الـقـدرـاتـ (١١ـ)ـ تـنـقـضـيـ عـبـرـانـ .ـ وـإـذـاـ كـانـتـ الـأـبـيـاتـ الـثـالـثـ وـالـرـابـعـ الـخـامـسـ تـمـثـلـ رـفـضـاـ سـلـبـاـ لـلـطـلـلـ ،ـ تـمـتـ الـأـوـلـىـ إـلـىـ الـبـيـتـ الـخـامـسـ ،ـ وـتـمـتـ الـثـانـيـةـ إـلـىـ الـعـاـشـرـ السـادـسـ مـنـ صـيـغـةـ الـفـعـلـ لـتـكـونـ

انطلاقاً الشاعر بعيدة عن قيود وتأكيداً لهذا المعنى يأتي الشجن) مرتبأ على الإبصار لا على وجود الطلل في ذاته ؛ ومن اللافت أن الشاعر الطلي لـ يلجاً في رسم الصورة المجازية إلى تقديم الطلل في شكل جثة هامدة ، ويرغم أن الأبيات الثلاثة الأولى تكون الحركة الأولى في هذه الأبيات ، كخط زبور في عيب يمان وم ٢ - ديار لهند والرباب وفرتنا ٤ ليالينا بالنعم من بدان - ليالي يدعوني الهوى فأجيده واعين من أهوى إلى روان وإن أمس مكروباً فيارب بهمة كشفت إذا ما اسود وجه الجبان وإن أمس مكروباً فيارب قينة منعمة أعملتها بكران التمتع بغناه القينات ) ، الذي يأتي بعده الجار هذا الاستفهام الإنكارى إلى (طلل) الذي جاء (منكراً) ليكون ويلفتنا أن الصياغة في مفتح البيت معتمدة على المنبه الأسلوبى نفسه الذي أثره الشاعر كثيراً في وقوفه على الطلل ، ويمكن أن نعود به كذلك إلى ما ترسب من أبعاد نفسية عن موت الأب الذي يعيد إلى الابن الإحساس برجولته وفتوته ومن هنا كان وقوفه متأملاً لحظة الفناء دافعاً إلى لحظة الحياة ؛ ولكن هذا الانطلاق إلى الحياة يخالطه - بلاشك - نوع من الإحساس بالوحدة والغربة ، حتى تستحيل لحظة الفناء إلى لحظة حياة بكل ما تحويه الكلمة من مضمون . ذلك أن الشاعر - عن طريقها - يريد أن يضع نفسه في موقف محайд بين الذات دون أن نصاب منها بأي أذى (٤) مرت كام علوم ساري والطلل ، بالإضافة إلى ما في الفعل ذاته من دلالة على الزيارة السريعة الخاطفة ، تجعل الجملة الواقعية في حيز الأمر (على الرابع القديم بعسعاً شيئاً هامشياً بالنسبة للشاعر . بأن يجعل الطلل هو الرافض للذات ، ثم رفضه سليماً من خلال رفض الطفل له وتعود الذات إلى سيطرتها على المعنى في الشطارة الثانية عن طريق تعديل الصياغة بوسيلة تعبيرية أخرى هي (الالتفات) من الخطاب إلى التكلم ، يقول أمرؤ القيس : ١ - ألمَا عَلَى الرَّبِيعِ الْقَدِيمِ بِمَعَا كَانَ أَنَادِيْ أَوْ أَكَلِمَ أَخْرَسَا ٢ - فَلَوْ أَنْ أَهْلَ الدَّارِ فِيهَا كَعَهَدُنَا وَجَدَتْ مَقِيلًا عَنْهُمْ وَمَعْرِسَا وَتَأْكِدْ طَبِيعَةِ المَفَارِقَةِ عَنْدَ مَوَاجِهَةِ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ بِالثَّانِي . في حين تحول الصياغة في البيت العاشر إلى (التكلم) ليكون النفي إيجابياً مباشراً ، تعود بعدها الذات إلى حالة الصحو والتنبه ، فتصب كل ذلك في قوله فنية ذات تكوين ثابت . ورفض الذات نابع من وجود غالب وقدرة على ممارسة الحياة في كل مكان وكل زمان . وباحتواها على بعد الزمانى من المواجهة على دلالتها على منتصف النهار وأخر الليل بالنسبة للوجه الاسترجاعي في التجربة . فتستحيل صورة الطلل إلى عجوز تناویته عوامل الضعف والتحلل حتى وصلت به إلى تلك الحال . بما فيها من تقلب على كل عوامل الضعف ، وبما فيها من قدرة على المغامرة العاطفية بلا حدود ؛ أو بمعنى آخر تخلص الذات من الملامح الطلالية التي يقول أمرؤ القيس : ٢ - تمشى النعاج بها مع الآرام - ديار هند والرباب وفرتني نصفاً الأطيط فصاحتين فغاضر تسربت إليها من طبيعة التوحد بينهما . وتمتد هذه اللحظة على مساحة الصياغة في الbeitين الأول والثاني ، فقدم (التساؤل) على ما بعده من تراكيب تصرف جملة إلى الماضي من خلال سيطرة (غضيئتها عليها ، وتأتي حالة التنبه السريع مع مطلع البيت الثالث بالاعتماد على خاصية الحذف في (ديار) المحذوفة المبتدأ ؛ مع فقدان القدرة على الكلام والحركة، وكأنه يقول لنفسه : كان يجب أن تعرف هذه الديار بعد أن (غضيئتها) وتلبست بها ؛ وبهذا يحدث نوع من التعادل بين المخلفات النفسية القديمة والحقيقة التي يمر بها الشاعر ويعيشها في كل لحظة كلما مرت به ذكري قديمة ، وعلى مستوى الدلالة ، بحيث بدت علاقته به علاقة سلب في مجملها